

## التناس الديني و التحول الشكلي في الغديريات العاملة

• د. صفاء عبدالله برهان – جامعة بغداد

### مدخل:

هذه كلمات لم تكتب في حين واحد، ولم تختص لزمن واحد، كذلك لم يكتب لها أن تشرع حركتها من فكر واحد، وإن كان ثمة جامع بين ذلك كله، فهو قصة تتويج أمير المؤمنين علي عليه السلام، في يوم الغدير الأغر، والتقاؤها تحت سماء واحدة، هي سماء جبل عامل، تلك الأرض المباركة التي أشربت بالولاء العلوي الشريف.

وقد ركن الباحث فيها إلى تشخيص جمالية التناس المتنوع، في النصوص العاملة، وقد اقتصر على بناء النص وعرض نمط اللغة التعبيرية، التي كانت مناد التجربة الذاتية لكل شاعر على مستوى الموقف التلفظي ونظيره المعنوي، بالموازنة بين النص الشعري ونظيره الفكري. والتي تقررت في النصين القرآني والنبوي المقدسين، وما تنماز به خصوصيات النصوص المتواجزة لغويا وتشريعيا، فضلا عما توافرت عليه من عناصر شعرية أساسية. وعلى أساس ذلك التنظيم المنهجي كان على البحث أن يولي شطره نحو مرجعيات التناس وآلياته؛ في سبيل تمحيص أدبيات الغديريات العاملة، بما وجد فيها من فضاء تلتقي فيه التشكيلات اللفظية، التي تعمل بثنائية استقطاب وإقصاء بعض الألفاظ والمعاني عن بعض المستويين الدينيين، وليس الأمر منحسرا في هذا الأفق، إذ يدرك منها نتاج خطابي دقيق ذي طبيعة تقاطعية في ملفوظ القصائد، ذات البعد النفسي والفكري والتربوي، التي يمكن من خلالها تحديد نمذجة الموقف المحوري، والاهتمام بالحصيلة المتوخاة لفعل التناس؛ فكان أن أوضح منهج البحث في استثمار علاقة الشعر بدالة المادة المتناس معها، والرؤية الفنيّة في النص الشعري المشحون بالحركة والانفعال. ولعل شيئا من هذا القبيل يكاد يمثل حضورا عابرا يقتصر على الجانب النظري في حياة الشعراء العاملين وعلى سلوكهم أيضا. كما بان في الشهادة التي قدمتها أبياتهم المنتقاة في هذا البحث الموجز، بما وصفت به الأحداث التاريخية لحديث الغدير، والتي تجنى منها ما أوجبه الله ورسوله لهم. حيث ذلك التحرك حل القضايا المثارة في الساحة العاملة التي عاشتها من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر الهجريين، بما تم انتقاؤه من أنموذجات وقعت تحت يد الباحث.

وقفة عند مفهوم التناس:

ذكر الدكتور أحمد ناهم عرضا واضحا عن الجذر اللغوي المترجم عن مفهوم التناص ، وما يقابله من أدبيات الفهم العربي له ، بقوله : (إن مصطلح التناص في النقد العربي الحديث هو ترجمة للمصطلح الفرنسي (intertext) حيث تعني كلمة (inter) في الفرنسية : التبادل ، بينما تعني كلمة (texte) النص وأصلها مشتق من الفعل اللاتيني (textere) ، وهو متعد ويعني نسج أو حبك ، وبذلك يصبح معنى (intertext) : التبادل النصي وقد ترجم إلى العربية : بالتناص الذي يعني تعالق النصوص بعضها ببعض. وصيغته (التناصيص مصدر الفعل على زنة (تفاعيل) تأتي على اثنين أو أكثر وهو تداخل النصوص ببعضها عند الكاتب طلبا لتقوية الأثر.<sup>(١)</sup> وعلى وفق هذا النسق فإن التناص يستند إلى مرجعية أدبية ذات جذور لغوية ، تحتك بالأثر الذي تبنى عليه العلاقة بين السابق والحاضر ؛ ليتوالد معها صورة جديدة للنص اللاحق ، الذي ليس هو النص الأول كما أنه ليس النص الآخر ، بل هو نص يمثل خصوصية جديدة تركز فيما تركز على التراث النصي ، وتقفز عليه بطبيعتها المتفردة التي يظهرها الأديب ، بحسب الرؤية والثقافة التي يعتنقها.

وعلى هذا النسق الأدبي فإنه يمكن الركون إلى ما ذهب إليه عبد الملك مرتاض في تقديمه لمفهوم التناص ، ملمحا ميسرا في عرض هذا المفهوم الأدبي ، يقول : (إن التناص ليس إلا حدوث علاقة تفاعلية بين نص سابق ونص حاضر لإنتاج نص لاحق وهو ليس إلا تضمينا بغير تنصيص حسب مقولات بارت).<sup>(٢)</sup>

وعليه فإن التناص ليس صورة جديدة لما عهد في مفاهيمنا العربية عن (السراقات) ، بل إنه ينماز منها بالإعجاب الذي يظهره النقاد والأدباء بالنص المتناص ، بخلاف السراقات التي كثيرا ما حازت النفور والاستهجان والعيب على من يتداولها. وهو ما سيتم مباحثته في مستويي التناص القرآني والنبوي ، في سطور البحث هذا.

## التناص مع القرآن الكريم:

يبدو أن الفهم القرآني الواسع الذي كان يهيمن على العقلية العاملة ، قد فتح أفقا تناصيا أدبيا من ضمن آفاق الرؤية الشعرية الأخرى ، وسمح على وفق أدبياته بتلافي القراءات المتنوعة التي تقفز على المتغيرات النصية في بناء صيغها الجمالية. بما يمكن هذه الإجراءات المنتقاة من تقريب النص القرآني شعريا ، بحكم ما حملته سواء في طريقة معالجتها لموضوعها أو في قصدها المنهجي ، وقد

١. التناص في شعر الرواد : ١٧.

٢. التناص في معارضات البارودي : ١٩.

أسعفت تطبيقات النصوص الغديرية العاملة على إبراز أهمية التناص القرآني، إلى الحد الذي ميز الخصائص التي ميزته عن كتابات آخر.

وأول ما نستطيع ملاحظته على الآيات التي برزت في النصوص الغديرية العاملة، أنها نصوص ذات أواصر وثيقة بشخصية أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، ولاسيما في الجانب العقائدي الذي يبرز أولوية هذه الشخصية المباركة في قيادة زمام الأمة الإسلامية، بعد رسول الله صلوات الله عليهما. ومن تلك الآيات ما هو مرتبط بأصل قصة الغدير، ونعني بها قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم ديني واتممت عليكم نعمتي ورضيت الإسلام لكم ديناً).<sup>(١)</sup>

وهذه الآية الشريفة هي الأكثر وروداً في الشعر العاملي الخاص بذكرى الغدير، وهو أمر طبيعي لارتباطها اللصيق بتلك الذكرى العطرة، وقد التفت إليها شعراء جبل عامل فأداروا عليها أشعارهم الولائية، بحسب الآليات التناصية، التي استحضرت في شعرهم، ومنها آية (التمطيط)، التي حفلت بها كثير النصوص الغديرية، والتي تعني (أن يتناص النص اللاحق مع النص السابق، فتدور حول فكرته وألفاظه، ثم يشرحها ويوضحها بشكل أكثر تفصيلاً ودقة، حتى يشبع رغبة القارئ في الفهم والاستقصاء)<sup>(٢)</sup>.

وقد اتخذها كلُّ شاعرا سبيلاً إلى مقصده التبليغي والشعري، بحسب ما أمكنه ذلك، ومنهم الشيخ الكفعمي<sup>(٣)</sup> من غديرته التي يقول منها:

هنيئاً هنيئاً بيوم الغدير	ويوم الحبور ويوم السرور
ويوم الكمال لدين الإله	وإتمام نعمة ربّ غفور
ويوم الفلاح ويوم النجاح	ويوم الصلاح لكلّ الأمور
ويوم الإمارة للمرتضى	أبي الحسنين الإمام الأمير <sup>(٤)</sup>

ويلحظ أن وعي الشاعر بخصوصية النص القرآني ونوعية العمل الشعري المنتج بآلية التمطيط التناصية، قد أبرز صورة ذلك اليوم بحرفة أدبية، آية ذلك تفسيره العلاقة الرابطة بينهما. فالشعر

١. سورة المائدة: الآية ٣.

٢. التناص في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر: إسرائ عبد الرضا عبد الصاحب الغرابوي: ٦٧.

٣. هو الشيخ إبراهيم تقي الدين ابن الشيخ زين الدين علي ابن الشيخ بدر الدين حسن ابن الشيخ محمد ابن الشيخ صالح الحارثي الهمداني: جمع بين العلم الأدب، درس العلم في بلاده، وأخذ عن جماعة من الفضلاء بها وبغيرها، منهم والده، والسيد حسين بن مساعد الحسيني الحائري، والسيد علي بن عبد الحسين الموسوي صاحب رفع الملامة، له مؤلفات جمّة من أشهرها كتابه مصباح المنهج، توفي بكر بلاء في سنة ٩٠٥ هـ، ينظر: أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين العاملي: ٣٣٦/٥، ٣٥٨.

٤. الغدير في الكتاب والسنة والأدب: الشيخ عبد الحسين الأميني: ٢١١ / ١١.

يلتقي هنا بالنص القرآني في ركونهما على نص مكتوب يمكن أن يقرأ مستقلا، وينمازان باحتياجهما إلى ما يكملهما في التمثيل، فكان لهذا التحيث الشعري أن يعمد إلى تمطيط الدلالة القرآنية، بمفردات تظهر الفلاح والنجاح بهذا اليوم، بما يلتقي بروح مشروع الغدير الإلهي، وتوحي بضرورة إبقاء المتلقي متلهفا، إلى حال الأحداث التي تتكشف بعثبات متواصلة تتسارع في اللحظة المناسبة. فكان لهذا السرد الواضح أثره في نقل القارئ إلى مغازي الغدير.

ويقول السيد علي الأمين الثاني<sup>(١)</sup>، في معرض حديثه عن هذه الآية الكريمة:

يوم الغدير بك الإيمان يكتمل	بالمصطفى وإمام الحق يختزل
يوم به قد أتم الله نعمته	وأكمل الدين لا نقص ولا خلل
هذا بلاغ من الرحمن أرسله	عن صادق خبرا بالوحي يتصل
قال الرسالة ما أديتها	إن لم تبّلع وحكمي ليس يرتجل
وقال يعصمك المولى بقدرته	نصّب عليا وإلا ضاعت المثل
بلّغ وإلا أجبر على عمل	أعلن ببغض علي يبطل العمل
بلغتكم نبأ مولاي عظمه	من كف صاحبه دانت لنا الملل <sup>(٢)</sup>

كان للشاعر أن يولي شطره نحو كلام الله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس...) <sup>(٣)</sup>، وقد احتسب لذلك فضاء واسعا تلتقي فيه التشكيلات اللفظية المستلّة من الآية القرآنية، حيث المفردات المفاتيح التي تعمل على استقطاب بعض الألفاظ الخارجية، عن الآية الكريمة إلى النص الشعري الذي يمطط الآية والأبيات بصورة جديدة، كذلك يُدرك منها نتاج خطابي دقيق متقاطع في ملفوظ الأحداث القرآنية، المتمحوة في أبعاد كثيرة، ومنها البعد النفسي والفكري والتربوي. وقد لفّ ذلك كلّه بأسلوب سردي جميل بين الحضرة الإلهية عن طريق الوحي الشريف والرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله،

١. هو السيد علي بن محمد بن علي تقي الأمين الحسيني: ولد ببلدة قلاوية في سنة ١٣٧٢، ودرس عند الشيخ عبد الأمير قبلان، ثم هاجر إلى النجف في سنة ١٣٩٠، ودرس على مجموعة من علمائها كالسيد عبد المجيد الحكيم، والسيد محمد حسين الحكيم، والسيد عبد الصاحب الحكيم، والسيد محي رحمهم الله جميعا، وحضر بحث الخارج عند آيات الله العظام السيد نصر الله المستنبت، والسيد أبي القاسم الخوئي، والسيد محمد الروحاني قدست أسرارهم. ترك النجف في سنة ١٤٠٠هـ، إثر الأحداث، وعاد إلى لبنان، بيد أنه لم يستقر بها، فقصدهم، أقام بها ثلاث سنوات، ثم عاد إلى لبنان حيث بلدته. وما زال حيا يرزق.

٢. علماء نغور الإسلام في لبنان ١٩٥٠\_...: السيد عباس الموسوي: ٥٦٦\_٦٦٦.

٣. سورة المائدة: الآية ٦٧.

ومنه إلى جمهور الصحابة، على نحو الإيجاز والاختصار في سعي واضح للإفصاح عن الحال النبوية التي يهتم بتحديد نمذجة الموقف المرحلي.

أما الشيخ البهائي<sup>(١)</sup> فكان له أن يولي وجهه إلى (إظهار الدين)، فأوردها محتسبا آلية التكثيف، إذ (على وفق هذه الآلية يصبح النص وحدة تكثيفية تقوم على الإيجاز أو الاختصار، وهذا ما ينسجم مع اللغة الشعرية التي تعتمد الإيحاء والتأويل والرمز في طرح دلالاتها من دون الإطناب أو التفصيل).<sup>(٢)</sup> فيورده في محمسته، قائلا:

لنا أظهر الدين لما خفي      ومن ذكره كم عليل شفي  
وليّ الإله التقىّ الوفي      عليّ الذي شهد الله في  
فضيلته وارتضاه جهارا<sup>(٣)</sup>

رأى أن الحركة التصويرية التي تبعثها أجواء الآية الكريمة: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله).<sup>(٤)</sup> التي تبدأ مع البعثة النبوية وتنتهي بالولاية العلوية. وتجلياته في اختيار إحداث الاهتمام بالحصيلة المتوخاة لواقعة الغدير؛ فكان أن أوضح أدبيات عمله في استثمار علاقة النص الشعري بدالة النص القرآني عامة، والرؤية الفنية في النص المشحون بالانفعال المبرز للعمل النبوي، في صناعة شعرية اعتمدت في بلورتها الكلمة المحسوسة والمشعة.

أما الشيخ عبد الكريم الصادق<sup>(٥)</sup> فكان له أن يعود إلى جذور قرآنية رصينة تربط بين اختصاص الولاية بالله تعالى الوارد في قوله: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة.....).<sup>(٦)</sup> واختصاص العصمة بأمر المؤمنين عليّ (عليه السلام)، والوارد في قوله: (إنما يريد الله ليذهب

---

١. هو الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الجعبي، شيخ الإسلام درس على علماء عصره كوالده والشيخ عبد العالي الكركي وغيرهم، ساج ثلاثين سنة، واجتمع بكثير من أهل الفضل، حتى وصل أصفهان، في أيام الشاه عباس الصفوي، فطلبه لرئاسة علمائها فولياها وعظم قدره، له ما ينيف على مائة مصنف، فضلا عن الشعر، توفي سن ١٠٣١هـ، ينظر: أمل الآمل في علماء جبل عامل: الحر العاملي: ٢٦ / ١.

٢. التناص في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر: ٦٣.

٣. الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١١ / ٢٤٨.

٤. سورة التوبة: الآية ٣٣.

٥. هو الشيخ عبد الكريم ابن الشيخ حسن بن عبد الحسين آل صادق المخزومي العاملي: ولد في الخيام من قضاء مرجعيون في سنة ١٣٠٨، تتلمذ للشيخ عبد الحسين صادق، ثم توجه إلى النجف الأشرف في عام ١٣٢٥هـ، وحضر دروس آية الله الأصفهاني، والميرزا النائيني، والملا الحراساني، رحمهم الله جميعا، ثم عاد إلى مسقط رأسه بعد أربع سنين، وقد منح مرتبة الاجتهاد من أساتذته المذكورين، عرف بالصلاح والورع والتقوى، توفي في ١٣٩٢، ينظر: علماء نغور الإسلام في لبنان ١٩٥٠ \_ ...: ٥٦٠ \_ ٥٧٨.

٦. سورة البقرة: الآية ٣٣.

عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا<sup>(١)</sup>، مع التبليغ الإلهي الوارد في آية التبليغ التي أوردتها على صيغة التكثيف:

من قال إن عليا رابع الخلفا	فواصف لم يف حقه بما وصفا
وهل سوى المرتضى خلف	والعدل هل يرتضى إلا به خلفا
وما الخلافة للأراء تعقدها	وإن تصافق رأي الجمع مؤتلفا
وإنما هي للديان خالصة	والناس ما ملكوا من حبلها طرفا
برد أبي الله عدلا أن يقمّصه	غير إمريئ برداء العصمة التحفا <sup>(٢)</sup>

عرّج على شخصية أمير المؤمنين علي عليه السلام البارزة، في موازنة واعية لأحداث القرآن لفها كياسة أدبية، واعتمدت فضلا عن ذلك الحاكمية لله تعالى التي لا يمكن أن تحوّل إلى إنسان، وقد أسند الأمر هنا إلى من يتلاءم مع مقومات الشخصية الذاتية بدواخلها وخوارجها، وهي تشتمل السيرة الذاتية. وما يمكن الكشف عن الشخصية المرموقة التي تحدد الحاجة إلى تحويل هذا النص إلى رؤية إسلامية تروي نهاية.

وعنّ للشيخ عبد الكريم الصادق، أن يدعم الحجج في أحقية أمير المؤمنين علي عليه السلام، فنكص على آيات قرآنية كثيرة، لينسج منها هذه الآيات الشعرية ذات النزعة التناصبية التكثيفية:

ومن براءة عزّت أن يبلغها	سواه فارتد عنها منبها ضعفا
ومن أتى شاهدا نص الكتاب له	بالطهر تحت الكسا و الرجس عنه نفى
ومن أتت في كتاب الله وافية	مدحا هل أتى بالندرحين وفى
ومن بخاتمته حال الركوع سخا	كفا فنال من الله الولاء كفا <sup>(٣)</sup>

هذا النص الغديري كان ينحو إلى ما يستلزم تأهيل أمير المؤمنين علي عليه السلام، النزوح نحو البعد التداولي المتعارف عليه في الآيات القرآنية الثلاث؛ التي وردت بمستويات تناصبية مختلفة الأولى ذكر مناسبة قوله تعالى: (براءة من الله ورسوله إلى المشركين يوم الحج الأكبر.)<sup>٤</sup>، الذي يستوجب إيجاد الدور الرئيس الذي قام به إزاء أبي بكر الذي لم يؤهل لها، وتعقبها آية التطهير والوفاء بالندرح

١. سورة الأحزاب : الآية ٣٣.

٢. علماء نغور الإسلام في لبنان ١٩٥٠ \_ ..... : ٥٥٧ .

٣. المصدر نفسه : ٥٧٣ .

٤. سورة براءة : الآية ١ .

الوارد في قوله تعالى: (يوفون بالندر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) <sup>١</sup> والتصدّق بالخاتم (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) <sup>٢</sup>، وكلها دعت الشاعر إلى اتخاذ المنحى القصصي في تلك الآيات الكريمة في ميدانه، والعلة في ذلك هو ما توافرت فيها من معايير فنية، لا تخفى على القارئ المتذوّق المتبصر، وإن نأت عن التعبير المباشر للبناء الدرامي، واكتفت بالتركيب الخطّي لأحداث متصلة تقود إلى صورة للشخصية العلوية المقدّسة داخل بيئة المدينة المنورة. بهذه الصورة التكنيفية التي كانت قوام الشاعر في هذا السرد السريع لعرض أولوية أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في زعامة الأمة.

يزداد التناص القرآني في غديرية الشيخ عبد الكريم صادق، ليعضدها بإمامة سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، التي عرضها على وفق آية التمطيط بقوله:

تلك الإمامة إبراهيم فاز بها      بعد النبوة في العهد الذي سلفا

وقال: ربّ ومن ذريتي فأتى      إليه عن كل ظالم عهدي لقد صرفاً <sup>٣</sup>

إذن فالإمامة بحسب السياق القرآني المفوظ على لسان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) عندما دعا ربّه وما كان من رد الحضرة الإلهية: (قال رب اجعلني للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) <sup>٤</sup>، كانت ذات جذور قديمة تمتد مع امتداد النبوة ولكن بشروطها. وقد لعبت دورا مساعدا متضامنا طال حقيقة الآخرين والكشف عنها. بحيث انقسمت إلى فئتين متضادتين، وهو تقسيم تملّيه طبيعة النفس البشرية المسبوقة بالإرادة الإلهية.

التناص مع الحديث النبوي:

١ سورة الإنسان: الآية ٧.

٢ سورة المائدة: الآية ٥٥.

٣ علماء ثغور الإسلام في لبنان ١٩٥٠ \_ ..... : ٥٩٦.

٤ سورة البقرة: الآية ١٢٤.

يحتكم التناص النبوي في جماليته إلى القواعد المنطقية لقيام المعنى بصورته الأخيرة، ويكون هذا الشيء من خلال البنية الشعرية والنبوية الممزوجة، ومن هذا نجد صورة التناص داخل البيت الشعري تمر من نافذتين منطقيتين، تتمثلان في غيابه مقابل حضوره الذي يقدم ما يربط النص للبحث عن التوازن النبوي الأدبي، مع مراعاة أمور أخرى كالتحقيب الزمني الداخلي على أساس زمني خارجي.

وهكذا وجدنا نشاط الشعراء العاملين، يتوهج في حركتهم الباحثة عن تظهير دور النص في المنع والحجز، عند الأوضاع التي تحفز القدرة على الفعل الشعري. يقول الشيخ إبراهيم العالمي<sup>١</sup>:

ويوم الغدير استوضح الحق	مطيع وعلا بعد الوضوح وضوح؟
ولكنها ملت رجال عن الهوى	وقد لاح وجهه للصباح صبيح
وقد يكره الشمس المنيرة أرمم	ويعرض عن شرب القراح قريح <sup>٢</sup>

ركن في هذا الحيز التناصي إلى ذكر (يوم الغدير) وما رشح عنه من معطيات من دون ذكر سياق الحديث كاملاً؛ ولعله قد وجد في ما اشتملت عليه من وصف، وآلية التمطيط التي احتسبت التشبيه الضمني في البيت الثاني، محورا فيما تبعته من إشارات حركية متنوعة بصيغها السمعية وبصرية، التي يمكن أن نستقيها من أجواء النص. وهو بذلك يؤكد ما تبعته الصورة الذهنية للكلام، من توافق مع العملية الإبداعية وارتباطها العملي بسياق المعلومة التاريخية. ويلحظ على هذا النص الغديري العالمي، أنه أورد ما جاء ردا عمليا حقيقيا على حديث الغدير، وقد سعت هذه المقاربة التناصية الحديثة، إلى الكشف عن مظاهر التواري في الشخصية المناوئة لأمير المؤمنين علي (عليه السلام)، ووقفت عند طبيعة خضوعها لأشكال متغيرة بخصوصية المرحلة اللاحقة، التي تتجلى في صورة الأبنية، المركزة على بعض استخداماتها، التي اعتمدت استحضار الشخصيات المحورية. ويرجع الشيخ عز الدين العالمي<sup>٣</sup> كثيرا من إحالاته الشعرية إلى أحاديث كثيرة مكثفة تضمنها قوله:

١ هو الشيخ إبراهيم بن الشيخ يحيى بن محمد بن سليمان العالمي: ولد بقرية الطيبة من أعمال جبل عامل في سنة ١١٥٤هـ، كان عالما فاضلا أدبيا شاعرا مطبوعا، نظم فأكثر حتى أشتهر بذلك وأخذ عنه ولده وذريته، هرب من عام بعد وقعة الجزائر، إلى بعلبك وقد لقي الأهوال بتلك الرحلة، ثم دخل العراق، وأخذ عن جماعة من علمائها كالسيد بحر العلوم والعلامة كاشف الغطاء، ثم دخل مشهد وعاد إلى دمشق وهناك كانت النهاية. ينظر: أعيان الشيعة: ١ / ٥١٤.

٢ معجم شعراء الشيعة: ١ / ٢٠٨.

٣ هو الشيخ حسين بن عبد الصمد بن شمس الدين محمد بن زين الدين علي بن الشيخ بدرالدين حسن بن محمد بن صالح بن إسماعيل الحارثي الهمداني العالمي الجبعي: ولد فاتح سنة ٩١٨هـ، وتلمذ على طائفة من أعيان عصره، وروى عن جماعة منهم



ولي في القيام مقام نصير	فلي في المعاد عماد بهم
والخوف من أن ذنبي كبير	لأنني أنادي لدى النائبات
وزوج البتول ونجل الظهير	أخا المصطفى وأبا السيدين
وخير نبني بشير نذير	ومحبوب رب حميد مجيد
ومولى الأنام بنص الغدير <sup>١</sup>	ونور الظلام وكافي العظام

هذا تفصيل واضح لحديث الغدير حاول للممة أوصاله في قالب شعري، طغى على صورة الحادثة، ولم يجد مندوحة في صهرها ضمن هذا النسق الوصفي، الذي يتجاور مع المنجز النبوي في ظل وجود التحول التكلمي ومدلولاته؛ إذ إن البيت الشعري الواحد يقابل حديثاً نبوياً، مع الأخذ بالحسبان الميزة الثنائية لهما معاً، ويمكن أن نعثر عليها من خلال كونها الأسهل وصولاً إلى القلوب، على وفق النظام المعبر عن الفكرة، والصورة هنا ليست مقطعا سطحياً، وإنما هي صورة النص المقدس شكلاً وموضوعاً، وتتوافر عناصر التناص القصصي وحضوره في تفاصيل الحياة اليومية.

وعلى وفق هذه المعطيات الذاتية للشخصية العلوية، نجد التنوع في الخطاب الشعري يحمل نوازعا شعرية مختلفة تجسد قصدياً معينة، فضلاً عن وظيفتها التي تظهر تفاعلاً بينهما. وإن مثل هذه الرؤى الشعرية لا تصنف ولا تنقل أي شيء، ولا تقبل قيم الصدق والكذب بالمعنى العادي، ومن ذلك عزم الشيخ عبد الكريم الصادق على وصف حديث الغدير:

هذا الذي نصب الهادي لنا خلفاً	كنصب موسى لهم هارونه خلفاً
هذا الذي حبس الهادي الحجيج له	عن الميسر بنجم بعد ما ازدلفا
و منبراً من حـدوج اليعملات علا	والدوح يبسط ظلاً فوقه ورفاً
وقام يخطب والأبصار طامحة	إليه ولا طرف منها يلتوي طرفاً
وقال من كنت مولاه فحيدرة	مولاه حسبي تبليغاً لكم وكفى <sup>٢</sup>

الشهيد الثاني، والسيد بدر الدين الحسن الأعرجي الكركي العامي، وصاحب المعالم، والسيد حسن بن علي بن شدم، وروى عن جمهور غفير، من أشهرهم السيد الأمير محمد باقر الداماد، له مصنفات متعددة في الفقه والأصول والمناظرات والعقائد والحديث، وهو والد الشيخ البهائي رحمهما الله تعالى توفي سنة ٩٨٤هـ، في قرية المصلّى من أرباض هجر البحرينية. ينظر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: العلامة المجلسي: ١٠٩ / ١٦٥، وأمل الآمل في علماء جبل عامل: ٧٤ / ١، ورياض العلماء: عبد الله أفندي: ١٠٩ / ٢.

١ الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ٢١٧ / ١١.

٢ علماء ثغور الإسلام في لبنان ١٩٥٠ \_ ..... : ٥٧٢.

تمثل هذه الأبيات الرؤية الداخلية للشاعر في مضمون حديث الغدير، وذلك من خلال التذكير بمزايا أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، والعودة إلى حديث المنزلة: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)<sup>١</sup>، ثم يبدأ انطلاق المآثر النبوية في الحشد الجماهيري للحجيج، حيث تهيئة الأجواء والخطبة والنصح والإرشاد إلى أمير المؤمنين علي (عليه السلام). وعلى هذا النسق فالحوار النبوي يعتمد أدبيات التواصل الحركي، ويبدو أن تطبيقات معطيات هذا التناسل النبوي في هذا الوضع الزمكاني يستدعي تنميط اجتماعي حقيقي، يقدم تلك الشخصيات في سياق محكم يتناول مواقع القصص البصري في (من كنت مولاه... فحيدرة مولاه)، وتكون محفوظة تظهر أمام القارئ عندما يبدأ بالقراءة.

وللسيد علي الأمين الثاني أبيات من غديرته تعتمد بنحو واضح على ما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وآله، وبين الصحابة بشأن التبليغ بحديث الغدير، يقول في ذلك شعرا:

قال الرسول لهم: هل تعرفون لكم	مولي يطاع له أمر ويمثل
قالوا: بلى أنت مولانا وسيدنا	أنت الأمين لك الأرواح تبذل
أولى بأنفسنا جاء الكتاب بها	أنت الولي ونحن الجند والحوال
قال اسمعوا لي فمن كنت الأمير له	فالأمر بعدي إلى الكرار ينتقل <sup>٢</sup>

يتحقق الخطاب الأدبي في تطويع حديث الغدير بصورة حوارية بصيغ متعددة لا تترك المادة الخارجية كما هي، بل تحوّلها إلى مادة مرئية انطلاقا من بنية الخطاب الحوارية المعتمد الحجاج النبوي مع الصحابة. وهذا التصور اضطره إلى الانطلاق بعيدا، في الركون على ما تقدمه من دعم موقع أمير المؤمنين علي (عليه السلام) اجتماعيا وسياسيا، بما يعنيه ذلك من فهم وتفسير للعلاقة الممكنة بين الرواية وما يعد خلفيتها المركزية التي تغذي أوصالها المختلفة بالتسوية الذي يسمح لها بالتشكل التناسلي، ويبدو منه الإدراك النبوي بمآزق الصحابة الذي قد يفضي إلى التلفيق؛ نظرا لاختلافهم فعمد إلى الحرص على إيجاد رابط أساس يجمع بين اشتغالها، وقد كان هذا الرابط ماثلا في النتائج المتوصل إليها في الدلالة العلوية.

وعلى ذي صلة من حديث الغدير، ينطلق السيد علي الأمين العاملي<sup>٣</sup> (١٢٤٩)، إلى بيان الحال المناوئة بشيء أكثر وضوحا، يقول:

١ صحيح مسلم: ٢/٢٣٦/٣٣٧.

٢ علماء نغور الإسلام في لبنان ١٩٥٠ \_ .....: ٦٦٥.

٣ هو السيد علي بن محمد الأمين بن موسى بن حيدر بن أحمد الأمين الحسيني العاملي: درس على علماء عصره كالعلامة صاحب مفتاح الكرامة، والعلامة صاحب الرياض، والسيد عبد الله شبر، وانتهت إليه الرياضة الدينية والدنيوية في البلاد

فبخبغ كل منهم ثم ضيَعُوا وصيته فيه وما خيف عقباها<sup>١</sup>  
 لعبت هذه المفردة (بخبغ) دورها في عرض الموافقة الظاهرة لبيعة الغدير من قبل عمر بن الخطاب، الذي بايع أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، قائلاً: (بخ بخ لك يا بن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة)<sup>٢</sup>. ولكنها كانت في الحقيقة بيعة مظهر يتوارى خلفه أبرز أدوارا المعارضة الشخصية للإرادة الإلهية على لسان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، بل لقد طالت ما بعدها من المناحي المعرفية، كما لعب أدوارا متعددة، من بينها الإرباك الأخلاقي والمعرفي، الشيء الذي ينتج عنه إرباك رؤية الشخصية المزدوجة وفكرها، في عملية تسيير المجتمع الذي يصدها بتعدد أولياته.

ومن الأحاديث المرتبطة بحديث الغدير، يطالعنا (حديث الحوض) القائل: (إني فرطكم على الحوض من مرّ عليّ شرب، ومن شرب لم يضمأ أبدا...)<sup>٣</sup> في غديرية الشيخ الكفعمي:

علي الوصي وصي النبي	وغوث الولي وحتف الكفور
وغيث المحول وزوج البتول	وصنو الرسول السراج المنير
أمان البلاد و ساقى العباد	بيوم المعاد بعذب نمير <sup>٤</sup>

مثل هذا التناص مع حديث الحوض طبيعة نتاج مرحلة تقريب النشاط العلوي، حيث العرض الجميل للذهنية العربية والتشوق إلى حب علي وموالاته، التي تجلب خيري الدنيا والآخرة من القارئ العربي، وتمكينه من ضبط مفاهيمه وآليات اشتغاله، وقد انحاز إلى مقاربتة هذه؛ لأنه وجدها عاصمة الناس من الزلل، وهو ما يوضحه في تواشيح البيت (أمان البلاد)، فضلا عن ربط النص بالخلفية المحركة، ما جعله يحول ما هو خارج النص إلى تشكيل داخلي.

وكذلك كان لغديرية الشيخ البهائي أن تمر على هذا الحديث الشريف، فتذكره في مقطع

مخمّس:

إذا شئت ترضي إله السما	وتهدي إلى الرشيد بعد العمى
وتسقى من الحوض يوم الضمأ	إذا ما انتهى السير نحو الحمى
وجئت من البعد تلك الديارا <sup>١</sup>	

العاملية، وكان زاهدا ورعا تقيا رفيع الهمة مهيبا عن العلماء والأمرء، دخل العراق مع أخيه حسن، ثم عاد إلى بلاده بعد أن نال مرتبة الاجتهاد، توفي شهيدا بالسم في سنة ١٢٤٩هـ، ينظر: أعيان الشيعة: ٢٣ / ٥٥.

١ أعيان الشيعة: ٤٢ / ٧٠.

٢ ليالي بيشاور: السيد محمد الموسوي الشيرازي،: ٢٣٥.

٣ صحيح مسلم: ٣١٦ / ٢.

٤ الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١١ / ٢١١.

فقد أدى التصوير المحلّي في هذا النص منحى المعارضة التناسية من خلال، المشروع الإلهي المعد لقيم الهداية ومنال ذلك في الشرب من الحوض، التي انتقلت نحو فتح الأبواب أمام الحياة المتصلة بإغراءات متكررة؛ الشيء الذي يولد لدى المتلقي شعورا عارما بالفلاح. فشكّل التناس النبوي أهم عامل لاستغراق أفراد المجتمع الإسلامي، في التفكير مليا بذواتهم والحال التي يرجى لها.

وهكذا تخرج الغديريات العاملة إلى حديث مهم يبين الشأن العظيم لأمير المؤمنين علي عليه السلام، ليس في الدنيا فحسب بل في يوم الحساب، ونعني به (حديث القسيم)، الذي ورد في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (علي قسيم الجنة والنار)<sup>٢</sup>، يقول الحرفوشي<sup>٣</sup>:

أعطاه باريه التقرب	منه والزلفى والمكانة
فغدا القسيم بأمره	يعطى الورى كلا و شأنه
يوري معاديه لظى	ويري مـواليه جناه <sup>٤</sup>

وهذا حديث آخر يتناص معه هذا الشاعر العاملي، ويأتي هنا ليؤكد حقيقة المنزلة العلوية، التي لمحتة هذه العين العاملة المبدعة في ذلك النص الروائي الغديري، وليس ذلك بغريب عن حال الاثنين بحسب شرعية المعرفة، التي تحتم هذه الحال. والحقيقة أن الأمر يتعلق بحجم الولاء والعداء للشخصية العلوية وعلى وفقها يكون أساس الحكم بالثواب والعقاب.

ويقول السيد موسى عباس العاملي<sup>٥</sup> في حديث (القسيم):

أبا حسن حرّ المصيف يضرنى	فكيف لظى لو لوحنتي وهبهب
أتلو على متن الصراط و تحته	وليـك باك يستغيث وينحب
أفي هذه الدنيا أقاسي بك العدى	وعند مماتي في الجحيم أكبكب
فما الفرق بيني يوم حشري وبين	غـدا لك في العداوة ينصب

١ الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١١ / ٢٤٥.

٢ المستدرک على الصحيحين: الحاكم النيسابوري: ٥٧/٣.

٣ هو الشيخ محمد بن علي بن أحمد الحرفوشي الحريري الشامي العاملي: من أساطين العلم والفضيلة، انتقل من الشام إلى بلاد العجم، وقطن بها إلى أن توفى بها في شهر ربيع الثاني سنة ١٠٥٩، قرأ على السيد نور الدين علي بن علي بن أبي الحسن الموسوي العاملي بمكة، له آثار قيمة في مختلف العلوم، وشعر رائق، ينظر: أمل الأمل في علماء جبل عامل: ١٦٣/١، سلافة العصر في محاسن أهل العصر: السيد علي خان المدني: ٣١٦\_٣٢٣.

٤ الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١١ / ٢٨٥.

٥ هو السيد موسى بن عبدالسلام بن زين العابدين بن عباس الموسوي العاملي: كان من العلماء المتبحرين في علوم كثيرة، وهو من شعراء عصره، وشعره محفوظ سائر، له ديوان شعر في مدح أهل البيت عليهم السلام، نشأ بالعراق وعرج على جبل عامل وعاد إلى العراق، فمدح أعيان تلك البلاد، توفي في النجف الأشرف، في سنة ١٢٥٣هـ، ينظر: معجم شعراء الغدير: ٢٥٨ / ٢.

أبا حسن أنت الأمان إذا أتى النداء خذوه والموازن تنصب<sup>١</sup>

وعلى وفق ما تم سرده من حيث تقسيم السيد موسى، انتقى هذا الحديث ووضعه في صورة شعرية، اعتمدت آلية التحويل، وتعني (أن ينتج النص في قدرته على تفعيل العلاقات التناسية بين النصين، وذلك بقدرته على إذابة مكونات النص الغائب في النص الجديد لدرجة يصعب فيها التمييز بين حدودهما)<sup>٢</sup>، وهنا تظهر مجموعة متفرّدة من الخصائص الدلالية والبنائية، التي جعلت منها نصا كبيرا يشكل أفقا شعريا جديدا لذلك الحديث، ومنه يعرّج على ذاته التي تأتي أن تجتمع مع معادي أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في مسار تطور النسق الشرعي في الآخرة. فأظهر برؤيته وعيا بخصوصية الفعل البشري بنحو حتمي على تصور طبيعة الحكم العلوي المستمد من الله تعالى، الذي سيقود إلى تشخيص مآل الحال، وإسقاط رؤاه على عمل الدنيا وموالات أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، بما يبرز جوهر خصوصيته التناص الفنية، التي آثر في تحليله لهذه لرواية الانحياز إلى مولاه؛ لأنها أكثر ترابطا لشكل الحياة الأخروية، على وفق منظور واضح يساعد على تدقيق نتائج الدراسات الشكلية، وصونها من الانزلاق نحو الهاوية.

١ معجم شعراء الشيعة: ٣٥ / ٣٣٦.

٢ التناص في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر: ٧٧.

## خلاصة البحث :

بعد هذه النظرة الموجزة عن التناس في النصوص الشعرية الغديرية العاملة، آن الوقت للظفر بأهم النتائج التي اعتصرتها نظرت الباحث من تك النصوص، وهي على النحو الآتي :

\_ وجد الباحث أن أغلب الشعراء العاملين الذين شدوا بهذا العيد المبارك، كانوا من فئة العلماء ومنهم من كان على درجة عالية من الاجتهاد، بل المرجعية العليا في زمانه، وأن أشعارهم كانت تتوافق في شهاداتها المبرمة التي تركز فيها على مواقف أمير المؤمنين علي عليه السلام الدينية والفكرية والاجتماعية، بما منحه الأولوية من دون الصحابة، وقد بان ذلك بشكل واضح في صدق اللهجة وحرارة المعاني الشعرية.

\_ برز التناس في النصوص الغديرية العاملة وجها من أوجه الخصائص الفنية، التي عبّرت عن جمالية تلك النصوص وعن متانتها، التي تستند على جدلية الظهور والاختفاء، فبرزت بآليات متنوعة كالتكثيف والتمطيط لتي اعتمدت على مجمل العلاقات المتبادلة، والمخرجة بصورة جديدة بحسب ما يسوغها.

\_ أعطى التناس مع القرآن الكريم منحى متضامنا مع مستويات النص الغديري، وقدّم من خلاله فهما وتأويلا معلومين في التأويلات التي أعطيت لها. وكذلك تركيبا منسجما مع تشكّل النص الجديد، ما حوّل المرجعيات القرآنية المعنية، إلى صورة واقعية داخل النصوص تحت أفق البعد الاجتماعي والواقعي.

\_ أدّى التناس النبوي دور ملحوظ، بدءا من الشريط المنتمي إلى حقل الولاية والمحبة والفضائل العلوية، التي حملت الحقيقة المضمرة عن قصد، ربما كشف حقيقة الطرف الموازي؛ لذلك عمدت إلى المداورة بدورها الموضوعي الذي يلزم الحياد مع الإصرار على خلق التناقضات بين الآخرين وإذكاء نار الفتنة بينهم.

مصادر البحث ومراجعته :

- أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين العاملي، مطبعة الإنصاف، بيروت، ١٣٧٥.
- أمل الآمل في علماء جبل عامل: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: السيد احمد الحسيني، مطبعة الآداب، النجف الأشرف.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: العلامة المجلسي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، بيروت، ١٩٨٣.
- التناص في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر: إسرائ عبد الرضا عبد الصاحب الغرباوي، أطروحة دكتوراه مطبوعة في كلية التربية للبنات / جامعة بغداد.
- التناص في شعر الرواد: أحمد ناهم، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ٢٠٠٤.
- التناص في معارضات البارودي: د. عبد الملك مرتاض، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، مجلد ٩، عدد ٢، ١٩٩١.
- رياض العلماء: الشيخ عبد الله أفندي الأصبهاني، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، والسيد محمود المرعشي، مطبعة الخيام، قم المقدسة، ١٤٠١هـ.
- سلافة العصر في محاسن أهل العصر: السيد علي خان المدني، ط مصر.
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط١، القاهرة، ١٢٩٠هـ.
- علماء ثغور الإسلام في لبنان: السيد عباس علي الموسوي، دار المرتضى، ط١، بيروت، ٢٠٠٠.
- الغدير في الكتاب السنة والأدب: الشيخ عبد الحسين الأميني الغروي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط٥، قم المقدسة، ٢٠٠٩.
- ليالي بيشاور: السيد محمد الموسوي الشيرازي، مؤسسة برهيز كار، قم المقدسة، ١٤٢٢هـ.
- المستدرک علی الصحیحین: الحاكم النيسابوري، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨.
- معجم شعراء الشيعة: عبد الرحيم محمد الغراوي، بيروت، ٢٠٠٠.
- معجم شعراء الغدير: مطبعة العتبة العلوية المقدسة، ٢٠٠٠، بمناسبة اختيار النجف عاصمة الثقافة الإسلامية.